الفصل الخامس

هتلر يضرب
بعض فرق الخدمة الإجبارية في الجيش

obeikandl.com

obeikandl.com

يقول تشرشل :

لقد كان الاحتلال الوحشي للحبشة ، الصدمة القوية التي أحسن بها الشعب البريطاني من اتفاق هور - لافال وفشل عصبة الأمم من المعوامل التي غيرت أوضاع حزب العمال وحزب الأحرار بالإضافة إلى الرأي العام الحسن النية . وبدت فكرة قبول نشوب الحرب ضد الطغيان الفاشي والنازي ، تلاقي صدى حسنا في النفوس ، حتى الذين يحبون السلام ويعتزون بالمهادنة . وبالرغم من معارضة حزبي المعارضة لجميع الإجراءات المؤدية إلى إعادة التسلح ، إلا أن مجال الاتفاق كان واسعا ، ولو حاولت حكومة جلالته أن ترتفع إلى مستوى الأحداث ، لتمكنت من تزعم جبهة شعبية متحدة ، تقودها في طريق حملة قوية للتأهب والاستعداد.

إلا أن الحكومة بقيت متمسكة بسياسة الاعتدال وأنصاف الحلول . وقد أذهلني عدم اهتمامها بالبحث عن توحيد الانسجام الذي أخذ يسود صفوف الشعب ، ولو أنها حاولت البحث عن هذا التوحيد ، لقوت بذلك مركزها وكسبت قوة كانت ضرورية للبلاد .

أما بالنسبة لألمانيا ، فقد أدى تسليحها من جديد إلى اقتراب موعد الحرب المحلية ، وأصبح تشوبها أمرًا مؤكدًا ، فبعد أن تأخرنا عن توقيف هتلر عند حدوده ، وبعد أن فرض هتلر الخدمة الإجبارية في الجيش ، متحديًا بذلك جميع المعاهدات ، وبعد أن غفرت بريطانيا له هذا التحدي العجيب ، وعقدت معه اتفاقًا وسمح له بإعادة بناء أسطوله البحري الذي يضم عددًا من الغواصات يوازي عدد الغواصات البريطانية . وبعد أن صرحت ألمانيا بنفسها أنها أصبحت تملك سلاحًا جويًا يضاهي السلاح الجوي الملكي البريطاني بدأت الآن تدخل عامها الثاني في الاستعداد والعمل النشيط لإنتاج العتاد الحربي الرهيب ، وأصبحت بريطانيا وأوروبا كلها ، وأميركا التي كانت تعتقد أنها بعيدة عن الخطر ، تواجه الآن قوة ضخمة منظمة ، بالإضافة إلى التصميم على خوض حرب ضروس ضد سبعين مليونًا من البشر .

وكانت من جملة بنود معاهدة فرساي ، البنود القائلة بعدم السماح لألمانيا بإقامة

تحصينات دفاعية على الجهة اليسرى من نهر الراين ، وإلى خمسين كيلو مترًا من الجهة اليمني من النهر ، كما أنها منعت أي وجود لقوات عسكرية بحرية في هذه المنطقة ، كما أن معاهدة لوكارنو التي نصت على حفظ الحدود القائمة بين ألمانيا وبلجيكا ، وبين ألمانيا وفرنسا . وتعهد الفرقاء بعدم القيام بأي هجوم عبر هذه الحدود ، وإذا ما خرقت إحدى الدول هذه الاتفاقات ، فإن عملها هذا يعتبر عملاً عدوانيًا لم يسبقه استفزاز ، ويتوجب على الدول المعتدي عليها أن تقوم بأعمال فردية ، وتنقل المشكلة إلى عصبة الأمم ، وأن تطلب معاونة الدول الأخرى الموقعة على هذه الاتفاقية.

وفي نفس اليوم الذي عهد فيه تسليم هذا الاقتراح لعقده كميثاق يعمل به لمدة خمسة وعشرين عامًا أعلن هتلر أنه قرر احتلال منطقة الراين ، وزحفت القوات الألمانية فورًا لتأخذ مواقعها على طول المنطقة وعرضها ،

وهبت فرنسا تطلب العون من حلفائها ، وتشكو أمرها إلى عصبة الأمم ، وكان من حق فرنسا أن تطالب بريطانيا بتنفيذ اتفاقها القاضي بحماية حدودها ضد أي اعتداء من ألمانيا، نتيجة للضغط الذي قاموا به في السابق لإجلائها عن منطقة الراين ، وكان المسيو سارو ، رئيس الوزراء، يرى إعلان التعبئة العامة فورا ، إلا أنه لم ينفذ هذا الرأي قبل الحصول على موافقة بريطانيا عليه أولاً ، إلا أن حكومة جلالته . أقنعت فرنسا بوجوب الانتظار ، حتى تقوم الدولتان بعمل مشترك ، بعد أن يتمكنا من درس الوضع دراسة شاملة وافية ، أما الرد غير الرسمي ، الذي أجابت به لندن ، فقد بعث في نفسي القشعريرة ، إذ سارع المستر لويدجورج إلى القول، أن جريمة هتلر الكبرى كانت في الاستفزاز لا في خرقه الفاضح للمعاهدة ، وأنه كان يأمل بأننا سنبقى رؤوسنا منخفضة، كان الاستفزاز في الظاهر ، هو فشل الحلفاء في نزع السلاح ، أكثر مما فعلوا حتى اليوم.

لقد أخطأت الحكومة الفرنسية في انصياعها لمشيئة بريطانيا وعرضها للمشكلة على عصبة الأمم، وهي التي أصبحت ضعيفة لا قيمة لها بعد فشلها الذريع في مهزلة العقوبات . فلو نفذت الحكومة الفرنسية تعبئتها العامة ، وجهزت مئة فرقة لكانت تمكنت من حمل هتلر على التراجع والانسحاب ، فقد كانت فرنسا في ذلك الوقت من القوة بحيث تتمكن

وحدها من إرغام الألمان على الانسحاب .

وعندما اجتمع هتلر بقادته العسكريين بعد نجاح حملته في احتلال منطقة الراين ، كان في وده أن يصارحهم بأن مخاوفهم السابقة كانت كاذبة ، لكنه برهن لهم بعمله هذا أن أحكامه وآراءه الخاصة أهم وأقوى من أحكام القادة العسكريين ، ولهذا أحنى القادة رؤوسهم باحترام . وكانت الفرحة تغمرهم ، كألمان مخلصين ، حين رأوا أن بلادهم قد بدأت تستعيد مكانتها السابقة في القارة الأوروبية في هذه السرعة الهائلة ، بالإضافة إلى أن أعداءهم السابقين قد أصبحوا ممزقين مشتتين ، وأعلن الفوهرر للعالم : لقد حققت ألمانيا جميع مطامحها الإقليمية ....

وأصيبت فرنسا بالتفكك وسيطر على البلاد الخوف من الحرب ، والرغبة في اجتنابها ، أما الإنكليز السذج فقد أبلغتهم صحافتهم : «أن الألمان ، على كل حال ، لم يفعلوا شيئًا سوى أنهم عادوا إلى بلادهم ، إذ كيف يمكن أن نشعر نحن الإنكليز ، لو تحتم علينا أن نبقى بعيدين عن يوركشاير مثلاً لمدة عشر سنوات أو خمس عشرة سنة ؟ » ... إلا أنهم لم يفكروا أن الحدود الأمامية قد تقدمت إلى الأمام مئة ميل ، وأصبح غزو فرنسا أقرب وأسهل .

❖ ❖ ❖

هتلر ومشروع الخمس سنوات:

يقول تشرشل :

مرت سنتان على الاستيلاء على منطقة الراين ، لم تضيِّع ألمانيا خلالها أية دقيقة من وقتها ، إذ بدأت التحصينات تظهر على طول الخط في تلك المنطقة . وأخذت المصانع الألمانية تعمل ليلاً ونهارًا لتجعل من صناعة ألمانيا كلها مصانع سلاح ، وتحول الشعب بأسره إلى آلة للحرب .

ولفتح هتلر عام ١٩٣٦ ، مشروع السنوات الخمس لإعادة تنظيم الاقتصاد الألماني وإعداده لمرحلة الاكتفاء الذاتي أثناء الحرب . كما حقق في الخارج «التحالف القوي» الذي كتب عنه في كتابه «كفاحي» وبين أهميته لسياسة ألمانيا الخارجية ، فتفاهم مع موسوليني وتم

تشكيل محور برلين-روما.

كانت سياسة هتلر العدوانية لا تعتمد على القوة العسكرية، بل تعتمد على الخلافات الناشبة بين فرنسا وبريطانيا، وعلى شدة خوفهما بالإضافة إلى عدم اكتراث الولايات المتحدة الأميركية. وكانت أعماله وتحدياته الأولى عبارة عن مغامرة يعرف أنه لن يتمكن من الصمود لنتائجها، إذا ما شعر بأن لدى الحلفاء قليلاً من الجدية الصادقة. وكان احتلاله لمنطقة الراين وإقامته للتحصينات فيها أولى هذه المغامرات التي نجح فيها نجاحًا كبيرًا. أما خصومه فقد كانوا على أشد ما يكونون من الضعف والتردد، إلى درجة أنهم لم يشعروا بهذه «البلفة» التي قام بها. أما حين تحركت جحافله في عام ١٩٣٨ لم تكن هذه التحركات عبارة عن «بلفة» أخرى، فقد أصبح العدوان الجديد مدعومًا بالقوة المتفوقة، وما إن بدأت الدولتان البريطانية والفرنسية تشعران بهذا التحول المفاجئ، كان الوقت قد فات.

❖ ❖ ❖

الوقف في إسبانيا:

يقول تشرشل:

أما في إسبانيا فقد تدهور النظام البرلماني فيها عام ١٩٣٦ إلى حد أدى لنمو حركة جديدة تتجه إلى إقامة نظام شيوعي أو حتى فوضوي في البلاد، ومن ثم إلى قيام ثورة عسكرية مبيتة، وكانت التعاليم الشيوعية وكتبها المدرسية التي ألفها لينين نفسه، تقول بأن الواجب يقضي بضرورة التعاون مع جميع الأحزاب والحركات اليسارية في البلاد، ودعمها للوصول إلى الحكم. عندئذ يصبح من السهل الانقلاب عليها ونسفها من الداخل، وإقامة الدولة الماركسية، وكانت هذه التجربة التي نجحت في روسيا، تحدث الآن في إسبانيا، إلا أن الجيش الإسباني كان محتفظًا بقوته، لذلك فقد سار مع الحركات الشيوعية، بينما كان يبيت ضدها مؤامرة عكسية.

وكانت أعمال العنف والقتل بين الفرقاء المتخاصمين تنتشر انتشار الوباء في البلاد، وازداد الوباء الشيوعي حدة جعل من مسألة حمل الخصوم السياسيين من بيوتهم وقتلهم

دون محاكمة أمرًا طبيعيًا . وقد حدثت حوادث كثيرة من هذا النوع في العاصمة مدريد بالذات ، وبلغت هذه الحوادث حدتها حين قتل الزعيم الإسباني المحافظ السنيور سوتيلو ، وكانت هذه الحادثة إشارة الانطلاق للقادة العسكريين لابتداء العمل، وكان الجنرال فرانكو قبل شهر من هذا الحادث قد أرسل إلى وزير الحربية الإسبانية رسالة قال فيها :إنه إذا لم تتمكن الحكومة من المحافظة على الضمانات العادية للحياة ، فإن الجيش سيضطر للتدخل فورًا ... وعندما تمرد الجنرال فرانكو وحمل راية الثورة ، انضمت إليه فرق الجيش كلها ، وأصبح السيد المطلق على الكثير من الولايات، أما البحارة الإسبان فقد هبوا لفورهم وقتلوا ضباطهم وانضموا إلى ما سمى بعد ذلك بالجانب الشيوعي،وقد استطاع الشيوعيون أن يسيطروا بعد أن انهارت الحكومة وراحوا يطبقون نظرياتهم وتعاليمهم .

وبدأت الحرب الأهلية المخيفة ، وقام الشيوعيون بجرائم عديدة وقتلوا خصومهم السياسيين، والأغنياء ، أما قوات فرانكو فقد قامت بدورها بقتل العديد من الشيوعيين وانتقمت للضحايا ، وسارت هذه القوات تحتل القرى الشيوعية وتنتقم من كل شيوعي تجده .

ووقفت الحكومة البريطانية موقف عدم التدخل ، واقترحت كذلك فرنسا مشروعًا بعدم التدخل ، وترك الفريقين يحلان مشاكلهما دون مساعدات خارجية ، وأيدت الحكومة الإيطالية والألمانية والروسية هذا المشروع ، وقد حافظت بريطانيا العظمى على هذا الاتفاق ، إلا أن ألمانيا وإيطاليا من جهة ، وروسيا من جهة أخرى ، سارعت إلى خرق هذا الاتفاق ، وراحت ترسل بالإمدادات العسكرية لفريق من الفرقاء المتخاصمين ، وراحت الطائرات الألمانية تغير على المدن الصغيرة بشكل وحشي ، ولم تلبث فرنسا هي الأخرى أن راحت تبعث بطريقة سرية بأسراب الطائرات للدفاع عن الجمهورية ....

❖ ❖ ❖

أحداث عام ١٩٣٧:

يقول تشرشل :

في الثامن والعشرين من أيار عام ١٩٣٧ ، اعتزال المستر بلدوين منصب الحكم ، بعد تتويج الملك جورج السادس . وقد نال لقب اللورديه تقديرًا لخدماته الطويلة ، بالإضافة إلى وسام ربطة الساق ، وقد خلفه في الحكم المستر نافيل تشمبرلين وزير المالية السابق ، والذي كان يقوم فعليًا بأعباء الحكم طيلة السنوات الخمس الماضية، وكان من أقدر الوزراء ، يتمتع بمزايا ومواهب جمة. وقد رحبت بتسليمه مقاليد السلطة ؛ لأنه كان من الشخصيات المرموقة النابضة بالحيوية ، بالإضافة إلى كفاءته .

أن باستطاعتي إجراء مقارنة بين الشخصيتين المستر تشمبرلين والمستر بلدوين ، اللذين عرفتهما مدة طويلة وكان مقدرًا لي أن أعمل معهما . فقد كان ستانلي بلدوين يتمتع بشخصية حكيمة بعيدة النظر ، إلا أنه كان يفتقر إلى المقدرة على التنفيذ واتخاذ القرارات ، وكان بعيدًا عن شؤون الحرب والجيش والشؤون الخارجية ، فقد كان يعرف شيئًا عن أوروبا ، وإذا عرف شيئًا فكان يكره ما يعرفه عنها ، إلا أنه كان يعرف بدقة مجرى السياسات الحزبية البريطانية ، وكان قد ترشح خمس مرات عن حزب المحافظين باعتباره زعيمًا للحزب ، ففاز في ثلاث مرات . أما رباطة جأشه فكانت صامدة قوية ، فقد كان يتمتع بموهبة فذة في الصمود تجاه الأحداث والانتقادات العادية ، وكان ماهرًا في تحرير الأحداث إلى خدمته ، وانتهاز اللحظة المناسبة عندما تحين .

أما المستر نافيل تشمبرلين فقد كان يقظًا ، متشبثًا برأيه ، وشديد الثقة بنفسه إلى حد المبالغة . وكان على عكس زميله يعتقد في نفسه المقدرة على تفهم جميع المسائل المتعلقة بأوروبا، بل وفي العالم. وقد حافظ على سياسة تضييق الخناق على الإنفاق الحربي طيلة عهده في الوزارة سواء حين كان وزيرًا للمالية أم حين أصبح رئيسًا للوزارة ،وكان العدو اللدود لجميع إجراءات الطوارئ، وقد سن قوانين وأحكام على الشخصيات السياسية المعاصرة لعهده ، سواء في داخل بريطانيا أم في العالم الخارجي ، وكان يشعر بأنه قادر على التعامل مع جميع تلك الشخصيات . وكانت آماله وأمانيه في أن يحصل على لقب بطل السلام ، لذلك

العمل بإخلاص لتحقيق هذه الغاية ، وقد عرض نفسه بذلك لأشد الأخطار كما عرض البلاد أيضًا ، لكنه وقع في تيارات لم يتمكن من تقدير قوتها، فواجه أزمات لم يتمكن من حلها أو من الابتعاد عنها ولا الصمود في وجهها .

لقد كنت أوثر العمل مع المستر بلدوين في تلك السنين التي سبقت الحرب العالمية الثانية، على العمل مع تشمبرلين ، إلا أنني كنت أشعر أن أيًا من الاثنين لم يكن راغبًا في التعاون معي إلا عند الضرورة القصوى .

مقابلة سفير ألمانيا:

يقول تشرشل :

في ذات يوم من عام ١٩٣٧ قابلت سفير ألمانيا في بريطانيا الهرفون ريبنتروب . وكنت قد كتبت مقالاً شرحت فيه أن الهر ريبنتروب قد أسيء فهمه نتيجة لخطابه الذي ألقاه مؤخرًا. وقد التقيته في إحدى الحفلات ، وطلب مني أن أقوم بزيارته في السفارة ، لنتحدث سويا . وقد استقبلني في دار السفارة ، حيث قضينا ساعتين في الحديث . وكان ريبنتروب طيبًا دمث الأخلاق ، دبلوماسيًا إلى أبعد الحدود . وقد قال لي أن ألمانيا لا تريد إلا كسب صداقة إنكلترا ، وقال: إنه كان في استطاعته أن يصبح وزيرًا لخارجية ألمانيا ، إلا أنه طلب من هتلر إرساله سفيرًا إلى إنكلترا ، كي يتمكن من العمل لتحقيق فكرة عقد اتفاق أو محالفة بين إنكلترا وألمانيا . وقد كان في وسع ألمانيا أن تصبح حارسًا للإمبراطورية البريطانية ، وبالطبع ستطلب استعادة مستعمراتها السابقة ، إلا أن ذلك لا يعتبر أمرًا أساسيًا. لكن ما تطلبه ألمانيا هو أن يسمح لها بإطلاق يدها في أوروبا الشرقية . إذ أن من حق ألمانيا أن تحصل على مداها الحيوي ، لتضمن العيش لشعبها الذي يتكاثر عدده ، لذلك فمن الواجب على ألمانيا أن تهاجم بولندا وممر دانزيغ . ولا يمكن للرايخ الكبير أن يحيا ، وهو يضم سبعين مليونًا من البشر ، بدون روسيا البيضاء وأوكرانيا . ولا يمكن للرايخ الألماني أن يكتفي بأقل من هذا . لذلك فمطلبه الوحيد هو ألا تتدخل بريطانيا في شؤونه تلك . وكانت في الغرفة ، حيث

جلسنا ، خارطة ضخمة معلقة على الجدار ، وكان يشير إليها السفير ريبنتروب ليبين لي ما يقوله .

وبعد أن أنهى حديثه ، أجبته برأيي الصريح ردًا على كل أقواله . ومما قلته : «أن الحكومة البريطانية لن توافق على إطلاق يد ألمانيا في أوروبا الشرقية ، فبالرغم من علاقاتنا السيئة مع روسيا السوفييتية ، وبالرغم من عدائنا الشديد للشيوعية الذي لا يقل عن عداء هتلر لها ، فإنه لو ضمنا سلامة فرنسا، فإننا لن نتخلى عن أوضاع القارة الأوروبية ونترك المجال أمام ألمانيا لتسيطر على شرقي أوروبا ووسطها » .

والتفتت فون ريبنتروب إلى فجأة وهو يقول : «إذن ، فلابد من الحرب، ولن يكون هناك أي سبيل لتجنبها ، فالفوهرر مصمم ، ولن يقف شيء في طريقه » .

وأجبت السفير بقولي : «عندما تتحدث عن الحرب ، فستكون حربًا عامة شاملة ، وهنا يجب على أن أنبهك بألا تستهين بقوة إنكلترا ، فهي بلاد عجيبة ، يصعب على الأجانب فهمها ، ولا يمكنك أن تحكم عليها من موقف حكومتها الحاضر . فعندما تعرض للشعب قضية عادلة، فستتحقق عندئذ بنفسك أن هذه الحكومة بالذات بالاشتراك مع الشعب سيقومان بأعمال عظيمة غير متوقعة ، لذلك لا تستهن بقوة إنكلترا أبدًا ، فهي حادة الذكاء ، وإذا ما أردتموها حربًا عالمية ، فستحرض إنكلترا العالم كله ضدكم، تمامًا كما حدث في الحرب الأولى » .

وهنا ظهر الغضب على وجهه ، فهب من مقعده واقفًا وهو يقول : « ربما تكون إنكلترا ذكية كما تقول ، لكنها هذه المرة لن تتمكن من تحريض العالم ضد ألمانيا » .

وانتقلنا بالحديث إلى مواضيع أخرى أكثر سهولة . وعندما جرت محاكمة فون ريبنتروب بعد انتهاء الحرب ، ذكر حديثنا هذا ، لكن بصورة مغلوطة ، وأصر على استدعائي للشهادة . ولو طلب إلى ذلك لما زدت أو أنقصت حرفًا واحدًا عما كتبته هنا ...

❖ ❖ ❖